

توادوسيوس قيصر

مأساة تاريخية تمثيلية ذات ثلاثة فصول



مارون عبود

توادوسيوس قيصر

مأساة تاريخية تمثيلية ذات ثلاثة فصول

تأليف

مارون عبود



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٦٦٨ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٥.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	أسماء الممثلين
٩	١- في القصر
٢٣	٢- في دار حكومة سلانيك
٣٧	٣- في القصر

أسماء الممثلين

توادوسيوس: قيصر.

وزير أول.

وزير ثانٍ.

المستشار.

الحاجب.

إمبروسيوس: أسقف ميلان.

حاكم سلانيك.

كاتب سره.

قائد.

مكدونييس: ناسك مشهور.

حبيسان.

ضابط.

غراسيان: الوالد.

ولداه.

جندي ورجل.

الفصل الأول

في القصر

المشهد الأول

توادوسيوس^١ وحده

وذكرى بين الأنام اشتهر	ملكُ الرقاب وسُدت البشر
وخيمت فوق النجوم الزهر	وفوق السمَّك ^٢ علت همتي
يروع في الشرق صلد الحجر	إذا سلَّ في الغرب سيفي الصقيل
ترفرق بين السُّهى والقمر	وفوق الدُّنى خفقت رايتي
بملكي حتى ازدهى وانتشر	ودين ابن مريم عززته

^١ توادوسيوس قيصر: ثيودوسيوس الكبير (٣٤٧-٣٩٥) آخر الأباطرة الرومان الذين حكموا الإمبراطورية الرومانية الموحدة قبل انقسامها إلى إمبراطوريتين: شرقية وغربية. شهرته لم تكن نتيجة انتصاراته العسكرية — وقد كانت عظيمة — إنما كانت نتيجة انتصاراته على الوثنية، بعد معارك ضارية انتهت بإقفال معابدهم والقضاء عليهم نهائيًا ٣٩٤م، وإعلان المسيحية دينًا رسميًا للإمبراطورية. وقد لاقى الدعم في سياسته، والتوجيه في عمله الديني والسياسي من إمبروسيوس أسقف ميلانو الذي كان بمثابة أبٍ روحي له. وعندما ثار عليه أهل تسالونيكى عاقبهم بالذبح، فغضب عليه الأسقف وأوقع به عقابًا صارمًا قبله الإمبراطور تكفيرًا عن ذنبه ذاك. ولكنه لم يستطع تسيير السياسة والدين بتوافق وتناغم، الأمر الذي أدى إلى انقسام الإمبراطورية بعد وفاته في ميلانو ٣٩٥م إلى إمبراطورية شرقية عاصمتها بيزنطة يحكمها ابنه أركاديوس، وغربية عاصمتها روما يحكمها ابنه الثاني أونوريوس.

^٢ السمَّك: واحد السمَّكين، وهما كوكبان نيران، أحدهما السمَّك الراح؛ لأن أمامه كوكبًا صغيرًا يقال له راية السمَّك ورمحه، والثاني السمَّك الأعزل؛ لأن ليس أمامه شيء.

ومن عبد الجهل من أمتي
فهدمت هيكل أوثانهم
هياكل سربيس^٣ مع كاتِب
وهيكل مرناس^٤ قوّضته
وفي الشام للربّ قد حوّلت
وفي بعلبك لقد صيّرت
وقد هدمت هيكل المشتري^٥
ودُست المصاعب فاستسلمت
فدرعي الصليب إذا أقبلت
أنال به كل ما أرتجي
فيا نفس سيري ولا تجزعي

نهضتُ إلى زجره فازدجر
وحطّمت أصنامها والصور
هدمتُ فلم يبقَ منها أثر
بغزة والدين فيها ازدهر
هياكل شتى، وفيها استقر^٥
يدي هيكل الشمس لابن البشر^٦
بُعِيد عناءٍ وعقبي ضجر
ولم أخش خصمًا بيوم الحذر
جموع العداة وفيه الظفر
وأبلغ بالله أقصى الوطر
على طرق الدين حتى المقر

نعم، سيظل هكذا توادوسيوس إلى الأبد متمسكًا بعُرى الدين المسيحي، رافعًا أعلام العدل، برًّا برعيته، شفوًّا على شعبه، وبهذا يأمر ديننا الرعاة، فالراعي الغيور من يبذل نفسه عن خرافه، ويقابل ذئاب الفساد بعضا من حديد.

^٣ سربيس: إشارة إلى انتصارات ثيودوسيوس على الوثنية وتهدم هيكلها وتحويل معابدها عن العبادات الوثنية إلى عبادة إله واحد.

^٤ مرناس: إشارة إلى انتصارات ثيودوسيوس على الوثنية وتهدم هيكلها وتحويل معابدها عن العبادات الوثنية إلى عبادة إله واحد.

^٥ استقر: إشارة إلى انتصارات ثيودوسيوس على الوثنية وتهدم هيكلها وتحويل معابدها عن العبادات الوثنية إلى عبادة إله واحد.

^٦ البشر: إشارة إلى انتصارات ثيودوسيوس على الوثنية وتهدم هيكلها وتحويل معابدها عن العبادات الوثنية إلى عبادة إله واحد.

^٧ المشتري: معبود الرومان الوثنيين، وهو جوبيتر أبو الآلهة وسيدها ورب السماوات الرامي بالصواعق، والإشارة هنا إلى تهديم معبده في بعلبك.

المشهد الثاني

الملك - الوزراء - المستشار

(الوزراء يدخلون، ويحيون بإحناء الرؤوس.)

توا: لقد استبطأت قدومكم أيها الوزراء، مع إني في انتظاركم.
وزير ١: إن أشغال المملكة يا سيدي الملك، قضت علينا بالتأخر هنيهة عن الاجتماع بجلالتك.

توا: يسرني أن أراكم معشر الوزراء، منكبين على العمل، مهتمين بشئون الرعية؛ فالعمال الصادقون ركن المملكة، ومصدر الخير، فكم من ملك دهوره^٨ في دركات الهوان تهاون عماله، فالدول بعمالها، والأمم برجالها.

وزير ٢: إذا كان الرأس حكيماً استخدم الأعضاء في الأعمال النافعة للأمة والوطن، ولما كنت ذلك الرأس فما نحن إلا متممو مشيئتك.

توا: مهلاً أيها الوزير! إن بين الملك وشعبه حاجزين حصينين، هما التاج والعرش؛ فالعرش يطلب أساساً من الحكمة والعمل، والتاج يطلب رأساً رصيناً ليستقر عليه ولا يسقط؛ فلهذا نرى الملوك عاجزين عن دخول الأكواخ، ومخالطة الفقراء ليعلموا ما ينزل بهم من المظالم، وما وقف بينهم وبين حقوقهم من الحواجز، فأستحلفكم بالله العلي العظيم ألا تبهر أنوار عظمة الوزارة أبصاركم، فلا تكثرثون للبؤساء، وتأنفون من مقابلة ذوي الأظمار الرثة، ولا تهشون إلا لذي الثياب المزركشة، فاعلموا وتحققوا أنه قد يوجد تحت تلك الأظمار البالية نفوس أبية، وبين طيات تلك الحلل الحريرية نفوس نهمة لا تشبع، ومطامع جهنمية تلتهم اليابس، والأخضر.

المستشار: مولاي! لقد وقفنا نفوسنا على خدمة الرعية بإيصال ظلماتها إليك، وعلى خدمتك بكل ما يدور على الألسن من الثناء على أعمالك المنطبقة على روح الشريعة والدين.
توا: لا يكفيني ذلك.

^٨ دهوره: دهور الشيء جمعه وقذفه في مهواة.

الجميع: مُر تُطَع.

توا: أسألكم، بل آمركم باسم السلطة — ولا سُلة إلا من الله — أن تتنكروا من حين إلى آخر وتجالسوا الشعب في المنتديات، وتسترسوا في الحديث عن الملك، فلعن بين أبناء رعيتنا من ظلمناه عن غير قصد فننصفه، ولا تكونوا مدلسين للكم؛ فإنه يسألكم الصدق، ألا إن آفة الملك المدلسون.

رجل (من الخارج): أين الملك؟

وزير ١: ليس بين رعيتك إلا السنة ناطقة بحدك، وأفواه تذيع آثار مجدك في الشرق والغرب.

رجل (من الخارج): أريد الملك.

توا: من هذا الصائح؟

المشهد الثالث

المذكورون — الحاجب

(الحاجب يدخل.)

توا: قل، ما وراءك؟

الحاجب: رجل يا مولاي يطلب الدخول عليك، فأبيت ذلك عليه، فملأ الرُواق صياحًا.

توا: ولماذا لم تستأذن له؟

الحاجب: لأنك في اجتماع مع الوزراء.

توا: إن اجتماعي بوزرائي لا يمنعني من مقابلة مظلوم من أبناء رعيتي، فما نحن إلا خدم الرعية، عد وقل له يدخل.

وزير ٢: يا له درسًا مفيدًا للملوك الذين يترفعون عن مقابلة شعبهم!

توا: هذا أصغر واجب أيها الوزير، يجب أن نحمل الشعب على حبنا لا على الخوف منا، فالسُّلة القائمة على أساس الرهبة يجرفها تيار الظلم، أما محبة الشعب للملك

فموطدة عرشه حيًّا، ومستمطرة غيوث الرحمة عليه ميتًا، ومن «أخذ بالسيف، فبالسيف يؤخذ».^٩

المشهد الرابع

المذكورون - رجل

رجل (يدخل، ويركع ساجدًا): سيدي الملك!
توا: انهض أيها الرجل انهض؛ إن السجود لله وحده.

(الرجل ينهض.)

توا: قل ما حاجتك؟
الرجل: مولاي! طلب مني أحد الأغنياء قطعة أرض لي مجاورة للملك، فأبيت إعطاءه إياها، فأخذها عنوة.

توا: ألم ترفع دعواك إلى المحكمة لتنصفك من خصمك.
الرجل: غني هو، وأنا فقير، رفعت شكواي، فكان الحق في جانبه، ادّعى أنه اشتراها مني، ودفع لي ثمنها.

توا: أجاأ بالبيئة؟

الرجل: بينته الدينار، وثيابه المزركشة، فلو كنت على غير ما تراني لكان الحق بجانب، فارحمني أيها الملك، ارحمني، وأشفق على صبيتي، فمن تلك البقعة نعيش، ونحصل على ضروريات الحياة.

توا: لا تتوسل، ولا تتذلل، فصاحب الحق سلطان.

الرجل: أبقاك الله يا سيدي.

^٩ قول إنجيلي خاطب به المسيح بطرس الرسول عندما حاول استخدام القوة لإنقاذ المسيح من قبضة اليهود (متى: ٢٦، ٥٢).

توا: رافق أيها المستشار هذا الرجل إلى المحكمة، وخاطب القاضي بلسان داود الملك قائلاً له: اعدلوا يا قضاة الأرض، ومن لم يعدل فليعتزل، فعار على توادوسيوس أن يكون الضعفاء في عهده فرائس الأقوياء، والفقراء مأكلًا للأغنياء.

المستشار: فليكن ما أمرت.

توا: بل فليكن العدل، فما نحن إلا له منفذون.

وزير ١: ما أعظم هذا الملك!

وزير ٢: بل ما أعدل!

الحاجب: مولاي! على الباب رسول يحمل إليك كتابًا.

توا: هاته منه، وما ترى ولدت لنا الليالي من العجائب في مملكتنا المترامية الأطراف، الفسيحة الأرجاء.

(الحاجب يدخل ويناول الملك الرسالة.)

توا (يفضها ويدفعها إلى الوزير الأول): اقرأها على مسامعنا.

وزير ١ (يقرأ):

لأعتاب مولاي صاحب الجلالة توادوسيوس قيصر

ملك الشرق والغرب

اسأل الله تأييد سرير ملككم، وأنحني أمام أعتاب سُدتكم بالإجلال، وبعد: كان البارحة موعد سباق العجلات، فأتى إلي جماعة من الأهالي يطلبون الإفراج عن دانتوس السائق الشهير المسجون في القلعة، فأبيت ذلك، فتألبوا أمام دار الحكومة، وتجمهروا من كل صوب، فقتلوا ثلاثة من مأموري الحكومة، ورجموا القلعة بالحجارة، فأصابني منها الحظ الأوفر، ولم يفكهم كل ذلك بل كسروا تمثالك، وحطموا أبواب السجن، وأخرجوا السائق، مندفعين كالسيل الجارف، حتى عجزت الجنود عن ردهم، ولما كنت عاجزًا عن التنكيل بهم رفعت عريضتي هذه لأعتاب مولاي القيصر الأكبر.

حاكم سلانيك والنتيان

توا:

قد ضاق صدري والحسام ينادي
يا أهل سالونيك لم أعهد بكم
أعليّ قمتم ثائرين وإنني
فلأضرمّن اليوم نار جهنم
مَنْ ذا يعاندني بتنكليلي بهم
قد حان يوم الفتك بالأوغاد
هذي الجسارة فهي شرُّ عناد
ملك الورى والدهر من أجنادي!
بين الضلوع تشبُّ والأكباد
والأرض أرضي والبلاد بلادي!

يا أيها الوزراء!

الوزراء: مُرنا.

توا:

جيشاً يدُك رواسي الأطواد
كي ترتوي بدمائها أحقادي
فدمار سالونيك^{١٠} أمسى مطلبي
... .. جندوا

وزير^١:

أنت ابن من حكموا البلاد ببطشهم
ولعرشك العالي انحنت سمر القنا^{١١}
نحن الألى نذروا الجسوم ضحية
وورثته عن أبسل الأجداد
يا سيد الدنيا وخير عماد
لك والنفوس لما أمرت صوادي^{١٢}

^{١٠} سلانيك: مدينة في مكدونيا — اليونان — كان اسمها تسالونيكى، وقد وجه القديس بولس إلى أهلها رسالتين، قام سكانها بثورة على الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير، فأعمل السيوف في رقابهم إخماداً لثورتهم، وانتقاماً منهم.

^{١١} سمر القنا: الرماح.

^{١٢} صوادي: عطاش والمفرد صادية: عطشى، ويقال: لي نفس صادية إلى اللقاء: أي عطشى إليه.

وزير ٢:

جد الأنام مليكهم يا ويلهم يوم الردى
فلسوف يمحي ذكرهم متبذداً مثل الصدى
إن اللئيم إذا رأى عفو الكريم تمرّداً
مولاي صوتك إن علا فالمشرفي له صدى

وزير ١:

غرّهم حلم مليك عادل ونسوا ما قال من قبل المثل:
«جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند من إذا قال فعل»

توا: هذه إرادتي أيها الوزير (يريه الأمر الذي كتبه) فاخرج بها إلى وزير الحربية،
وقل له يزحف إلى تلك المدينة المتمردة بجيش كالبحر الزاخر، فيقوّض أركانها، ويقتل
سكانها، فقد أبت نفسي الحلم، وكرهت العفو الذي جرّ الثورة والعصيان.

(وزير ١ يخرج.)

توا: إن هذا التاج الذي يفتن بريق دراريه أبصار البشر، لهو أثقل من الجبال على
رءوس الملوك، والجلوس على هذا العرش المصفح بالذهب لأمر من الرقاد على فراش من
قتاد،^{١٢} إذا التجأنا إلى الحلم لا نكبح جماح جهلة الشعب، وإذا أعملنا السيف في الرقاب
سلقنا الناس بالسنّة حداد، فما أصعب سياسة الرعية! (يقف) أنا ذاهب لأستريح قليلاً،
فإذا جدّ أمر هأمّ، فلا تتأخر عن قرع بابي (يخرج).

^{١٢} القتاد: الشوك.

في القصر

المشهد الخامس

الوزير ٢ - المستشار

(المستشار يدخل.)

وزير ٢: أعلمت بما جرى؟

المستشار: عرفت كل شيء، فكن رجلاً، فالفرصة سانحة.

وزير ٢: ما أسرع غضب هذا الملك، وأقربه للرضا!

المستشار: ما همنا، فليكن ما يريد.

وزير ٢: إن غضبه اليوم لنازٌ آكلة، وضربة قاضية على أعدائنا في سلانك، فلنغتنم هذه الفرصة، فهي أحبولة نصطاد بها من عجزنا عن التنكيل بهم منذ زمان.

مستشار: ومن تعني؟

وزير ٢: عنيتُ غراسيان، وعصابته الجهنمية التي لم تنفك عن تسويد صحيفتنا عند الملك ليفصلنا عن هذه المناصب السامية، ويجعلهم في مناصبنا آمريين ناهيين.

المستشار: يا له رأياً سديداً! فما علينا إلا أن نجتمع بالوزير، ونبدي له هذا الرأي، ولا إخاله إلا موافقاً عليه، فسر بنا إليه.

وزير ٢: هيا بنا إليه (ينهضان ويخطوان قليلاً).

المشهد السادس

المذكوران - والوزير الأول

(وزير ١ يدخل.)

وزير ٢: لقد كنّا ذاهبين إليك.

وزير ١: أين الملك؟

المستشار: وماذا تريد منه؟

وزير ١: لأخبره أن الجنود على أهبة الزحف، وقد أقبل القائد ليتزود التعليمات الخصوصية.

مستشار: أهو صديق مخلص لك؟

وزير ١: ولماذا؟

وزير ٢: لنزوده تعليمات خصوصية يخدم بها أصحابه قبل الملك.

وزير ١: وما تلك التعليمات؟

وزير ٢: أن ينكل بخصمنا غراسيان، ويورده حتفه، ولا يشفق على أحد من أسرته، حتى على ولديه الصغيرين.

وزير ١: يا للقساوة!

المستشار: تدارك الفخ قبل الوقوع فيه، فغراسيان يسحقنا في الساعة التي ينوي علينا بها.

وزير ٢: انظر فهذه تقاريره، يلصق بها التهمات بنا، ويسميننا أعداء الوطن، والملك، ألم تسمع حديث الملك لنا قبل وصول خبر الثورة؟!

وزير ١: صدقتما، ومن الحزم أن نصنع كما قلتما.

وزير ٢: عد إليه، وزوده هذه التعليمات وكفى.

(وزير ١ يخرج.)

وزير ٢: أفلحنا وسيكل عملنا بالنجاح إن شاء الله.

المشهد السابع

المذكوران - إمبروسيوس

(إمبرو يدخل، ويحيي بغير كلام.)

الاثنان (بكل احترام): سلامًا أيها السيد الجليل إمبروسيوس.

إمبرو: فلتبارككما السماء، أين الملك؟

المستشار: في غرفته.

إمبرو: قل له غير مأمور إن إمبروسيوس يريد مقابلتك.

(المستشار يخرج.)

وزير ٢: تفضل اجلس يا أبتِ ريثما يأتي الملك.

إمبرو: لقد أبت نفسي الجلوس، وكرهت الراحة، فأية راحة لي، والشعب مهدد بالخطر، والرعية تُساق إلى الموت سَوْق النعاج إلى المجزر.

وزير ٢: لقد احتدم الملك غيظًا، واضطربت نار الغضب في فؤاده لما اتصلت به فعلة السالونيكين الشنعاء، فقد رجموا دار الحكومة بالحجارة، وقتلوا الموظفين، وحطموا تمثاله.

إمبرو: أتجهل أيها الوزير أن الذين اقترفوا تلك الفظائع ما هم ملائكة؟ إن هم إلا بشر مثلنا، انقادوا بأزمة الهوس والجنون ممن تسلطت عليهم عوامل الجهل.

وزير ٢: فيجب أن تسكن الرهبة حركاتهم ليقفوا عند حد.

إمبرو: ليس الذنب ذنب الملك وحده في تلك المجزرة، فأنتم تدانون أيضًا في اليوم الأخير، أنتم يا من تدعمون مناصبكم المتداعية بجماجم البشر، وجثث الناس، فالويل لكم يا من تستحمون بدماء إخوانكم.

المشهد الثامن

المذكورون - الملك

مستشار: هو ذا الملك مقبل.

إمبرو: وا حرَّ شوقي إلى لقياه العاجلة!

(توا يدخل.)

إمبرو: سلامًا يا جلالة الملك.

توا (يجلس على عرشه): وأذكى التحيات يا أبت، تفضل اجلس.

(إمبرو لا يجيب، وهو مطرق الرأس).

توا: ما لك لا تجيب! طلبت مقابلتي فما حاجتك؟

إمبرو: لا إخالك تجهلها يا جلالة الملك.

توا: أهى العفو عن سالونيك؟ لا، يا أبت، إن هذا ضرب من المحال؛ قد عفوت عن أنطاكية^{١٤} بالأمس، فجنيت من ثمر العفو عوسج العصيان، وقتاد الثورة، أفى عاصمتي يثور شعبي عليّ، ولا يحسبون لسلطتي حساباً! فوالله لأنك بهم أشد تنكيل ليكونوا عبرة لسواهم، عززت مدينتهم، وروّجت تجارتهم، ونشرت العلوم بينهم، ولم استطع عملاً مفيداً إلا فعلته لهم، لكنهم كفروا بي، وغمطوا^{١٥} نعمي، فقتلوا ممثلي، ولم يكفهم حتى حطموا تمثالي، وها أنا أعاقبهم على تمردهم وعصيانهم، فلا تلتمس لهم عفواً أيها السيد الجليل.

إمبرو: مولاي! لا أجهل انعطافك إلى السالونيكين، ومدينتهم المحبوبة، وما يزيديني حزناً أن يكونوا أساءوا إلى من أحسن إليهم، فاضرب، اقتل، احرق، افعل ما شئت بهم، فذاك أقل عقاب يستحقونه، فالإثم الذي اقترفوه أقطع من الموت، وأمر من الحياة، ولو دمر البرابرة بلدهم لكان المصاب أخف من إسخاطهم لجلالتك؛ لأن جودك يجدد وطنهم، ويرد عليهم ما خسروه، أما الآن، وقد أسخطوا أحلم مولى، وأحن أب، فأني ملجأ بقى لهم؟! إن خجلهم عظيم، حتى إنهم لا يجسرون أن ينظروا إلى نور الشمس. قد حطم بعض الجهلة تمثالك، فيسير لنا أن نقيم لك تماثيل أئمن منه في قلوب رعايك، وقلب كل من عاش من البشر على وجه البسيطة، فكل من عرف حلمك أعجب بك وأحبك.

رشق بعضهم تمثال قسطنطين^{١٦} بالحجارة، فأغراه البعض للانتقام منهم، قائلين له: لقد شجوا رأسك، فوضع يده على رأسه وقال متبسماً: لا تخافوا، فلا خدش في رأسي،

^{١٤} أنطاكية: مدينة من مدن لواء الإسكندرون اليوم، بناها سلوقس الأول ٣٠٠ ق.م عاصمة له، فأصبحت ثلاثة مدن الإمبراطورية الرومانية بعد روما والإسكندرية، فيها ألقى يوحنا الذهبي الفم أشهر مواعظه، وهي مركز بطريركية أنطاكية ثمانية البطريركيات بعد أورشليم.

^{١٥} غمط: غمط الناس استحقهم وازدري بهم، وغمط النعمة لم يشكرها.

^{١٦} قسطنطين الأول الكبير (٢٧٤-٣٣٧) إمبراطور روما، أعلن بصرية الدين المسيحي في قرار ميلانو (٣١٣)، نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة فسميت القسطنطينية.

فنسي الناس انتصارات هذا الملك، وما برحت هذه الكلمة تدور على أفواه البشر يتناقلها الأحفاد عن الآباء والأجداد.

ما لي أذكرك بمثل الآخرين! فأنت قلت في أمرك الذي عفوت به في عيد الفصح عن المجرمين، إنك تتمنى لو كان لك سلطان على إقامة الموتى، فتبعثهم، ألا يسهل عليك صنع هذه الآية! فما سالونيك إلا مدفن، وما أهلها إلا جثث فيها، فقد ماتوا قبل أن ينزل بهم العقاب الذي استحقوه، فكلمة واحدة من فيك تحييهم.

لا تصغ يا مولاي إلى من يقولون أن الصفح عن هؤلاء يزيد غيرهم جسارة، فإنما هذا يصدق إذا صفحت عن عجز، وما هم أموات لجزعهم، ويتوقعون الموت في كل ساعة، ولو قطعت رءوسهم لكان عذابهم أخف، ولا أزيدك علمًا أن بعضهم افترستهم الضواري وهم تائهون في الغابات والمغاور، وهم رجال وأحداث ونساء شريفات مخدرات، وقد بدأ عمالك يذيقونهم العذاب.

إن تنكيل الملوك بعبيدهم المجرمين لسهل، ولكن صفح الملوك عن الإهانات، وهم قادرون على العقاب، فمن أندر الفضائل، فدونك الآن فرصة تستطيع أن تُبدي بها مثلاً يُقتدى به الدهور والأجيال، وكما يكون لك من الفخار إذا قيل إن مدينة كبرى أسخطت ملكها فارتاع سكانها، ولم يجسر ولاتها ولا قضاتها ولا شعبها أن يفوها ببنت شفة، إلا شيخاً موسوماً بكهنوت الله، امتثل أمام الملك، واستعطف حنانه ورأفته، فكفاه للعفو عن أهلها انتصابه أمامه، وإلقاؤه على مسمعه خطبة بسيطة، فلم يوفدني قومي إليك إلا ليقينهم أنك تُجلُّ كهنة الله وإن كانوا حقيرين مثلي، على أنني ما أتيتك من قبل الشعب وحده، بل من قبل رب الملائكة، وسلطان السلاطين لأقول لضميرك النقي: إذا تركت للناس زلاتهم ترك لك أبوك السماوي زلاتك، فإذا كان لك زلة ترغب في أن تكفر عنها، فكلمة واحدة من فيك كافية لمحوها من أسفار الله.

غيري من الوفود يأتيك بذهب، وفضة، وتقدمات، أما أنا فلا أقدم لك إلا صليب المسيح وسنته المقدسة، محرصاً إياك أن تقتدي به، فلا تخيب أمني، ولا تجعلني أخلف وعدي لشعبك، فإن عفوت عن المدينة عدت إلى أهلها شاكرًا حاملاً إليهم أمر العفو مطريًا إحسانك، وإلا فلا أرين أرضها ما حييت، وأتبرأ منها إلى الأبد.

توا (يتأثر ويذرف الدموع): أيُّ عجب في أن نغفر للناس، ونحن بشر مثلهم! فالمسيح صار عبداً لأجلنا، ونحن إليه آثمون، وصلبه من غمرهم بإحسانه، وهو يصلي لأبيه من أجلهم. (إلى إمبروسيوس) عُذ يا أبي مسرعاً إلى شعبك، وأمن المدينة، فقد عفوت عنها. اكتب أمر العفو حالاً.

وزير ٢ (على حدة): سيقطعون رأسه في الثورة الثانية إن شاء الله. **إمبرو:** كذا فلتكن الملوك، فبلسان الإنسانية جمعاء أشكر لك حلمك، ومسيحيتك الصادقين، وأدعو لجلالتك بالنصر إلى الأبد.

(المستشار يدفع أمر العفو إلى الملك.)

توا: هذا هو أمر العفو، فاحمله إلى شعبك أيها الراعي الصالح، فليس أحق منك ببشارة العفو والسلام.

إمبرو: أسأل رب الأرباب، وملك الملوك أن يباركك من سماه، ويجعل رايتك متوجة بإكليل الظفر ما حييت، (يهم بالخروج).

(توا ينهض عن عرشه متأهباً للذهاب.)

(يُرخى الستار.)

الفصل الثاني

في دار حكومة سلانيك

المشهد الأول

الحاكم – كاتب سره

كاتب سره: وما تلد الأيام بعد هذا الأمر الذي تقطر سطوراه دماء.

الحاكم: لا شيء، فالملك نمرٌ شرس، لا يخشى ليث الثورة إذا زار، لقد أمر بتمزيق الثائرين، ودك أسوار المدينة، وإشعالها كالهشيم.

كاتب: إنها لقساوة تُذيب القلوب، وتستبكي أعين التاريخ على شهداء أبرياء من هذه الثورة براءة الذئب من دم ابن يعقوب،^١ أنهدم الهياكل البشرية أخذًا بثأر تمثال من نحاس؟! إنه لبغي تتبرأ منه الإنسانية.

الحاكم: لقد كان السلام مخيمًا فوق الرعايا عندما كان السن بالسن، والعين بالعين، ولم تتفجر براكين الفوضى قبل شريعة الرحمة، ففي التأديب حياة لأولى الألباب، والقتل أنفى للقتل.

كاتب: إن عفو الملوك أعظم عندي من انتقامهم، ولو كنت ملكًا لما هدرت نقطة دم بشري، فخير لي أن يقال ذهب شهيد جهل شعبه من قولهم كان ذئبًا ضارياً فتك بنعاج هو راعيها.

^١ ابن يعقوب: يوسف الذي رماه أخوته في غيابة الجب، وزعموا لأبيهم أن ذئبًا اختطفه.

الشعب (من الخارج): ارحمونا، ارحمونا، (صراخ وعويل).
الحاكم: ستبتدي المجزرة، وينفذون أمر الملك بأولئك الطغاة.

ويح الألى خرجوا على سلطانهم عفواً فنُكِّلَ فيهمُ تنكيلاً
هم يطلبون العفو بعد جرائمٍ ولكم أباحوا في البلاد قتيلاً

الشعب: العفو! العفو!
الحاكم:

لا عفو عنكم يا ذئاب فشرُّكم ترك البلاد خرائباً وطلولاً

المشهد الثاني

المذكوران – القائد

القائد: أُوِّ من هذه المهمة التي أثقلت عاتقي، الصراخ من كل جانب ولم أكد أظهر
ما بين الشعب حتى تصاعد العويل، كلهم يطلبون العفو والرحمة.

الشعب: عفواً! رحمةً!

القائد: إنهم لا يزالون يصرخون، ألم تسمعا؟

الحاكم: كلا، لا أسمع، إن أُذُنِي صماء وقلبي مصفح بحديد القسوة، وهكذا يجب
أن يكون الحكام ليطحنوا برحى التأديب رءوس الأشرار، ويريحوا الإنسانية من مآثمهم.
كاتب (على حدة): ويح القساة!

القائد:

فلأطحنن كبيرهم وصغيرهم ولأحصدن رءوسهم بحسامي
هجموا على قصر المليك وما دروا إني أدافع عنه كالضرغام^٢

^٢ الضرغام: الأسد المفترس.

كم غمرة فيها المنية شمّرت عن ساقها والنقع^٣ فيها دام
صافحت فيها خدّ كلّ مهني والموت لاح على الشفار أمامي
أفیرتجون اليوم مني رحمة والصخر قلبي لم يلن لكلام

الحاكم:

حَيَّيت من بطلٍ يفوق شجاعة أبطال رومة آية الإقدام
فَمَلِكُنَا أمسى عليك معوِّلاً فاقطع رءوس عاده بالصمصام^٤
واهجم على تلك الجموع ولا تخف ودع الدّما هدراً كبحر طام
سر للطغاة معجلاً نفّذ بهم أمر المليك العدل بالإعدام

الشعب: ارحمونا يا آباءنا، ارحمونا، (ضجيج وصراخ).

كاتب: ما هذا الضجيج؟ من القادم؟

القائد:

إن كان رب العرش لست أطيعه

الحاكم:

سر لا تخف يا واحد الأيام

المشهد الثالث

المذكورون – الحبساء

حبیس ١:

مهلاً أيّا رب المهند إننا جئنا نريد الرفق بالإنسان

^٣ النقع: غبار المعارك.

^٤ الصمصام: السيف القاطع.

حبيس ٢:

فالتأثرون همُّهم إخواننا

حبيس ٣:

ومسيحنا يقضي بكل حنان

لا تسخطوه فإنه لا يرتضي

القائد (يقاطعه):

سأنفذ الأمر دون توائن

حبيس ١:

رفقاً، فهذا لا يكون، وإخوتي

القائد:

إن شئتُم، أو لم تَشُوا سيَّان

حبيس ٢: إننا ندافع عن الشعب حتى الموت.

حبيس ٣: ولن تخرج إلى ساحة الإعدام إلا على جِسمنا.

(القائد يحاول الخروج، فيقفون في طريقه.)

المشهد الرابع

المذكورون - مكدونيس

مكدو (يدخل): قف أيها القائد، وخلّ عنك الغضب.

(الحبساء يخضعون له.)

مكدو: باسم المسيح، أقول لك: قِفْ.

القائد: من هو هذا الشيخ الخَرَف؟ (يحاول دفعه).

الحاكم: هذا مكدونيس، ناسك الشرق العظيم.

القائد: عفوًا يا أبت، واعدزني إذا أصررت على تنفيذ أمر مولاي.

مكدو: قل أيها القائد للعاهل أنت لست ملكًا فقط، بل أنت إنسان أيضًا، وتملك على من يساوونك طبعًا، والطبع البشري خلق على صورة الله ومثاله، فلا تقتل صورة الله، فمن أتلف المصنوع أسخط الصانع، أنتم ساخطون لإهانة وقعت على تمثال من نحاس، وأليس التمثال الحي المتنفس العاقل أعظم من تمثال نحاس! إنه ليسهل أن نقدم لجلالة الملك مكان التمثال عشرين تمثالًا، إنما إذا أعدم واحدًا، فيستحيل عليه أن يحيي شعرة واحدة من رأسه.

القائد: لقد خرق كلامك صميم قلبي، ويا ليتني كنت ملكًا لأعمل بما تقول، فأنت تنطق بلسان الله يا رجل الله.

مكدو: لا تكن آلة أيها البطل تهدم كل ما حُوِّلَ إليه، فأنت ذو عقل وإدراك، فأمهل قليلًا، فلعل الملك يفيق من غفلته، ويعفو عن هذا الشعب، ولا يؤخذ البريء بجريرة المجرم.

المشهد الخامس

المذكورون - ضابط

(ضابط يدخل مُحَيَّيًا وَيُسَلِّمُ أمر الملك للحاكم.)

(الحاكم يفضه، ويقرؤه، ويدفعه للقائد.)

القائد (يقرأه ثم يقول لمكدونيس): أبشر يا محترم، فهذا أمر جلالة الملك، وقد عفا عن الشعب.

[°] مكدونيس: بطريك القسطنطينية (٣٥١-٣٦٠)، تعصب للأريوسيين، فعزله قسطنطين الملك، أنكر لاهوت الروح القدس، فردل بدعته المجمع القسطنطيني (٣٨١).

مكدو (والحبساء): فليعيش الملك، (ثلاث مرات).
القائد: فلنخرج نبلغ الشعب هذه البُشرى، (يخرجون).

المشهد السادس

الحاكم وحده

قَبَّحَك الله يا توادوسيوس، يا أبا براقش،^٦ أفي كل دقيقة لون! لعن الله الساعة التي جاء بها هذا الشيخ الخَرف.

الشعب (من الخارج): فليعيش الملك، فليحيي القائد.

الحاكم: لقد ظفرتُم أيها الأندال، فافعلوا ما تشاءون.

الشعب: فليحيي إمبروسيوس، وليعيش مكدونيس.

القاضي: آه من هذا الملك! وألف آه من مكدونيس، وإمبروسيوس^٧ وإثناثيوس^٨،
وباخوميوس^٩، وجميع الحبساء، والرُهبان والأساقفة! وكل ذي ثوب أسود.

(نشيد من الخارج):

اليوم قد زال العنا والشعب قد نال المُنَى
يا قوم سُرُّوا وافرحوا ولَّى العنا وافى الهنا

* * *

حيُّوا المليك الأعلا مَن عفوه عمَّ الملا

^٦ أبو براقش: طائر متعدد ألوان الريش، تتغير ألوانه بتغير الوسط الذي يحيط به، ضُرب به المثل بالتقلب والتلون.

^٧ إمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧) رئيس أساقفة ميلانو، فرض توبة صارمة على الإمبراطور ثيودوسيوس.

^٨ اثناثيوس: (الإسكندري ٢٩٥-٣٧٣) بطريرك الإسكندرية، حارب الآريوسية بعد مجمع نيقيا، نُفِيَ خمس مرات لصلابة رأيه.

^٩ باخوميوس: (نحو ٣٤٦) مؤسس الحياة النسكية المشتركة، أسس عدة أديار في مصر ووضع لها القوانين الرهبانية الأولى.

فادعوا إلى رب العلا يا ربنا احفظ ملكنا

الحاكم: ليتها صلاة الأموات والاحتفال بدفنكم أيها الأشقياء، وأراني الله أيديكم مخضبة بدم توادوسيوس الأحقق ليزوق طعم عاقبة العفو، فهو كالغرب يبجلونه، ويملقونه، فينتفض كالديك الحبشي، لا بد أن أرى هذا الديك يُشوى على النار، نار الثورة والعصيان.

المشهد السابع

القائد - الحاكم

القائد (يدخل): لقد أرسلنا نقول لجلالة الملك إن الشعب يريد أن يراه ليشكر له حلمه وعفوه، (يجلس) ما بالك يا سعادة الحاكم؟
الحاكم: إذا كنت لم أزل حيًّا فبعد إجراءاتكم الدالة على ضعفكم سيثورون، ويقتلونني، ولكنني فتى لم يُحبل بمثله في الدهر، إذا كثرت الأيام عن أنيابها أقابلها بسواعد من حديد تحطمها تحطيمًا.

فأمطري نقمة جبال سلانيك	وسحّي آبار رومة تبرأ
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا	وإذا مت لست أُحرم قبرًا
همّتي همّة الملوك ونفسي	نفس حرّ يرى المذلة قهرًا

القائد: إن العفو عن الضعفاء بعدما يعرفون أنهم أصبحوا في أشدّ الردى لهو أشدّ تأديبًا لهم من التنكيل بهم.

الحاكم: لا أيها القائد الباسل، فأنا بانتظار الملك، حتى إذا جاء أبديت له رأيي بوجوب العقاب، فإن فعل وطّد عرشه، وإلا فإنني أطرح حبل ناقة الوظائف على غاربها، وأعيش ناعم البال.

القائد: لا تكن حقودًا، واصفح عن الجاهل، فالصفح خير تأديب.

الحاكم: لا تعظني، كأنك تعلمت من مكدونيس، وإمبروسيوس، أنا واثق من نوال أمنيّتي من الملك، والانتقام من أعدائي، فإذا طلبت ذلك من الملك، فلا تعارضني، ودعني وإياه في عراك الجدل ترّ الغلبة لمن تكون.

القائد: إذا رأيت الملك أذعن لك أخذتُ بناصرك، وإلا فالصمت أولى.

الحاكم: لا أطلب منك غير هذا.

القائد: هو لك.

المشهد الثامن

المذكوران – المستشار

المستشار (يدخل): هو ذا جلالة الملك مقبلٌ.

القائد: كن في جانب الحاكم، وأيّ رأيه.

(المستشار يظهر الحيرة.)

القائد: ستسمع.

المشهد التاسع

المذكورون – الملك – والوزيران – والحجاب

الجميع (ينهضون): السلام على جلالة الملك.

توا (إلى القائد): أنجزت مهمتك؟

القائد: إن حلمك مولاي قد أراح السيوف في الأغمد، وعفوك حقن دماء العباد.

الحاكم: نعم، لقد حقن دماء الأنام، ولكنه سيهدر دماء الحكام.

توا: وكيف ذلك؟

الحاكم: إذا كانوا لم يقتلوا ممثليك هذه المرة عن بكرة أبيهم، ففي الكرة الثانية لا يحجمون، إن هذا الحلم مولاي سيهدم أركان السلطة، والانتقياد إلى رؤساء الدين يجر إلى الهاوية، ويقوض أركان العروش، فإذا حسُن لديك، فأعتقني من أسر الوظيفة وأنا لك من الشاكرين، أنا لا آمن على نفسي بين شعب كالذئب الضاري.

توا: نحن قادمون لاقتبال شكر شعب أحيينا من الموت.
الحاكم: وأنا إذا مت فمن يحييني؟ أعتقني يا مولاي، أعتقني!
توا: لم أرَ مثل هذا العناد.

الحاكم: ولم أرَ مثل هذا الضعف الملقب بالحلم.
توا: ما رأيكم أيها الوزراء؟

وزير ١: إن كلامك لا يخلو من الصواب.

الحاكم: لم أعد أدري يا مولاي! أنا عبد إمبروسوس، أم حاكم سلانك باسم الإمبراطور توادوسوس؟ فما زال الأسقف يدير دفة سياسة الإمبراطورية، فأنا لا أقبل وظائفها، إن إمبروسوس هو الإمبراطور لا جلالتك.

وزير ٢: نعم مولاي؛ إن ضرب الشعب تأديباً له لأُسُّ سلطتنا، وإلا انقلب علينا، وأذاقنا علقم العصيان.

الجميع: العقاب!

توا: لقد أصبتم، فلنهدم سلانك، ونتركها عبرة في عين التاريخ إلى الأبد.

فهل أعفو وبعض العفو عجز	وإن يكُ جاء في شرعي وديني
وإني قد عفوت الأمس عنهم	فزادوا بلةً في شر طين
لقد طمعوا فقم يا عدل واضرب	رقاب أسافلٍ قد أسخطوني
«وإني لو تخالفني شمالي	بأمرٍ ما وصلت به يميني» ^{١٠}

^{١٠} هذا البيت محرّفٌ، وهو للشاعر الجاهلي عائذ بن محصن بن ثعلبة العبدي الملقب بالثَّقْب العدي. من قصيدة له يعاتب بها محبوبته التي كانت تعدّه وتخلف مواعيدها. مطلعها:

أفاطمُ قبل بينك متّعيني ومَنَعكِ ما سألتُك أن تبيني

ومنها:

فلا تعدي مواعدَ كاذبات تمرُّ بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي خلافاً ما وصلتُ بها يميني

لقد أذقتهم شهد حلمي فسكروا وبطروا، فمن الرأي أن نعاقبهم، علّهم يرتدعون،
سر أيها القائد، ونكّل بأهالي سلانيك، أما أنا فذاهبٌ إلى ظاهر المدينة لكيلا أرى أحداً،
وأقبل رجاء أحد. اتبعوني أيها الوزراء.

تنبيه: يخرج الملك، ووزيراه، وحجابه من جهة، والقائد يدعو جنوده، فيمرون
بخطى عسكرية في المسرح، ولما ينتهون يخرج وراءهم مجرداً سيفه، ويبقى الحاكم
وحده.

المشهد العاشر

الحاكم وحده

قد نلتُ ما حنّنتُ له أحشائي	ولسوف أسكر من دِما أعدائي
ولأطحننّ جسومهم طحن الرحي	ولأمطرنّ صواعق البلواء
ولأتركنّ اليوم ناعقةً على	أطلالهم في الليلة الظلماء
فأنا الذي تخشى الأبالس سطوتي	والأرض ترهب صولتي ودهائي
ودرايتي تدع الملوك مهابة	تنقاد خاضعة إلى آرائي
غمز الزعانف ^{١١} لي قناة ما التوت	إلا وشجّت هامة الأعداء
وتحرشوا بالنار يا ويلاً لهم	من جمرة تشوي فؤاد الماء

(من الخارج صراخ وعويل.)

نوحوا فنوحكمُ الذّ لديّ من	نغم الطيور بروضة غنّاء
ذوقوا ثمار تمردٍ وقباجة	يا أقبح الأندال والجهلاء
أثعالبَ البيداء أين تحيّل	فقتم به أثعالبَ البيداء

^{١١} الزعانف: أراذل الناس، والمفرد زعنفة: أي القصير الحقيّر الذي ليس له أصل، أو المغموز في نسبه.

(من الخارج صراخ، وصليل سيوف.)

هذا عقاب الخائنين أميرهم فابكوا على أيامنا البيضاء
وتعلموا أن تخضعوا أبداً إلى حكامكم يا معشر الجهلاء

لقد بلغت نهاية الأرب، وسترهبني الأرض بعد الآن، ويخشاني الدهر، وترتعد
الشعوب من سطوتي، فهكذا يجب أن يكون الحاكم لتلين له ملامس السلطة، والسيادة.
(من الخارج شهيق، ونحيب.)
ما هذا؟ أسمع أنيناً، وعويلًا! (يتنصت) أسمع وقع أقدام! هذا هو القائد، من معه؟

المشهد الحادي عشر

القائد - غراسيان - ولده

القائد:

جزت الصفوف وفرقت الألوف وأرّ غمت الأنوف وجيش الموت يصطدم
وعدت والنصر يزهيني برونقه تبكي الخوارج من فعلي، فأبتسم
يرون نصري بعين نارها حزنٌ ومهجة نالها من حزنها ألم
لقد تركت جنودي يُجهزون على الـ بواقين منهم وكلّ الدور تنهدم
وقد أتيت بهذا معّ بنيه لكي ترى به رأيك الأعلى أيّا علم

الحاكم:

شكرًا لبأسك يا ليث الحروب فقل ما شئت فخرًا ففيك الفخر ملتئم
فأنت من تشهد الهيجا لسطوته والسيف والرمح والبيداء والعلم

ولكن يا أcha الروم، كيف أبقيت هذا الوغد حيًّا مع أنه نافخ نار الثورة في البلاد؟
فلا تقرر عيني ما لم أرّ دمه الفاسد يجري على الثرى.

غراسيان: أشكرك ...

القائد: صه يا رجل! فلي كلامٌ مع سعادة الحاكم ... مولاي أردنا الفتك بهذا الرجل، فبكى إلينا، وتوسل، وانحنى على أرجلنا يغسلها بدموعه، فرق قلبنا له، وأشفقنا على ولديه.

الحاكم: لا شفقة ولا رحمة أيها القائد؛ فهذا عدونا الألدُّ، إن شاء العفو عنه، فلا بأس، أما الصفح عن ولديه فمحال.

غراسيان:

اقضوا عليّ وارحموا ولديّ	فالموت أشهى يا كرام إلَيَّا
ولديّ في شرخ الصبا فترأفوا	بي وارحموا يا سادتي ابنيّ
فإذا تفيد حياة شيخ مرة	هيا اقتلوني واتركوا ولديّ
ولدان قد شجيا لأنني والدُ	لهما فيا رب اشفقنّ عليّ

ولدا:

مهلاً أبي وامسح دموعك إننا	نحيا بقربك وأمنا تأتينا
والدهر بسّام لنا عن ثغره	والرب خير معونة يولينا

الحاكم:

هيهات إنني حاكم لا أنثني	وأرى بقتلهما نوال مرامي
لا تطمعا بلذيق عيش فالحنا	ولّي وعمركما مضى بسلام
يا أيها المغوار هيا خذهما	واترك أبا لهما على الآلام.

القائد: أنا فاعل ما شئت ...

غراسيان:

... مهلاً إنني	أفديهما بدمي من الإعدام
يا أيها المولى اشفقنّ ولا تكن	صلب الفؤاد عليّ كالصمصام

الحاكم:

لا أغفرنّ ولست أرحم خائنًا للعرش والملك العظيم السامي

الوالد: أنا خائن، فاضرب بسيفك هامتي (يقدم رأسه).

الولدان: أبي لا تموت ...

غراسيان: بلى، فذاك مرامي.

قل يا أيها الحاكم كلمة، وأرحني من هذا العذاب، فإذا كنت لا تنثني عن قتل ولديّ فاقتلني قبلهما؛ لكيلا أرى ملكين بريئين يُقتلان أمام عيني، أنت والدٌ مثلي أيها الحاكم، أفلا تشعر مثلي بمحبة الأبناء؟!

ولد ٢: أبي ما بالك باكيًا؟!

الحاكم: بلى أيها الرجل؛ ولذلك أترك لك ولدًا منهما، فاختر لنا من نقتله.

غراسيان:

ويلاه من هذا القضا ويلاه	ويلاه من ذا الحكم ما أقساه
مَن ذا الذي أخاره لي منهما؟	مَن ذا الذي أرضى يذوق رداه؟
رباه من هذي القساوة نجّني	فبُكُم رجا المظلوم يا رباه

الحاكم:

عجل، واختر واحدًا لك منهما

غراسيان:

ويلي أعني اليوم يا الله!

أأسلم هذا، فهو كأخيه ظرفًا ولطفًا! أعطيهم ذاك، فهو كأخيه جمالًا وذكاءً! رباه ما هذا الموقف الذي تتفتت به الصخور، وقلوب البشر لا تلين.

الحاكم: عَجِّلْ عَجِّلْ، خذ منهما من تشاء، وأعطنا واحدًا نقتله.

غراسيان: إنك تكلفني المحال أيها الحاكم.

الحاكم (إلى القائد): خذوهما إذن إلى القتل.

(الجنود يمسكون الولدين.)

الولدان: الوداع يا أبي، الوداع!

غراسيان: لا تودعاني؛ فأنا سائرٌ معكما إلى الموت، والله على الظالمين.

(يُرخى السُّتار.)

الفصل الثالث

في القصر

المشهد الأول

توادوسيوس - الوزيران - الحجاب

توا (إلى الوزيرين): لم ترد إلينا التفاصيل المسهبة عن أعمال القائد، وما جرى له مع الثوار، فماذا تضمّر لنا الأيام؟

وزير ١: لا شيء يا مولاي، فهي أطوع من بنانك.

وزير ٢: كيف لا، وأنت رب البلاد، ومليك العباد!

توا: دعونا من هذه التمليلات، فهذه صفحة سوداء من تاريخي لا أستطيع محوها مهما فعلت، وسيردها التاريخ، وتتناقلها الأعصار، ولكن ما كُتب قد كُتب، وجلّ من لا يغلط.

وزير ١: لا تحزن يا مولاي، فحياة رعيّتك لا تساوي دقيقة واحدة من الحزن لقلبك الشريف، ولا سيما أنهم هم البائدون بالشر، ولو لم تؤدّبهم لكانوا وصلوا إلى ما هو أعظم من هذا، واضطرتت إلى أشد من هذا العقاب.

توا: إنكم تجتهدون في تبرئتي، فأنا عارف أنني ارتكبت إثماً عظيماً.

المشهد الثاني

المذكورون - القائد

القائد (يدخل): عم مساءً مولاي!
توا: تكلم أيها القائد، وهات ما وراءك من الأخبار.
القائد: عملاً بإرادتك السامية قد نكلنا بأهالي سلانيك، وأذقناهم ثمرة العصيان، فأسكرت سيفي من دمائهم.
توا: أشكر لك بسالتك، وإنْ على عملٍ لا يستحق الشكر، وبعد المذبحة ماذا جرى؟
(الحاجب يخرج.)

القائد: هدوء يملأ البلاد، وسكون سائد على المدينة، فكأنها مدينة الأموات.
(توا يتنهد.)

الحاجب (يدخل قائلاً): هذا كتابٌ يا مولاي دفعه إليَّ رسولٌ يقول إنه قادم من عند الأسقف إمبروسيوس.
توا (يفض الكتاب، ثم يلتفت إلى الوزراء قائلاً): أسألكم الخلوة أيها الوزراء.
(الجميع يخرجون بعد التحية.)
(توا يلتفت بالحاجب، فيخرج.)

المشهد الثالث

توادوسيوس وحده

توا: هذا كتابٌ من الأسقف إمبروسيوس، فلنقرأه:

أيها الإمبراطور!

إن ضميري يبكيني متذكراً قول النبي داود: إذا لم ينصح الكاهنُ الأثيمَ، فيموت بإثمِهِ ويأثم الكاهن لتقاعده عن النصيح، فلا أنكر أيها الملك ما لك من الغيرة على الإيمان، وما بقلبك من خوف الله، على أنك ذو طبع متحفز للغضب،

إذا حلمك أحد عدت إلى الحلم سريعاً، فأسأل الله ألا يكون لك من يهيجك، إذا لم يكن من يحملك على الحلم.

إنك لم تَرَ بأَمِ العين فظائع مقتلة سلانك، فكم من شيخٍ أثقلت ظهره السنون، قطعوه شطرين بسيوفهم، ولم يحترموا شعره الأبيض، وشيخوخته التي احترمها الموت، فلم يدنُ منها! وكم من خدر دخلوه، فاستباحوا به الأعراض، وهتكوا حرمة الشرف! وكم من أم قتلوها، ولم يُبقوا على رضيعها! وكم من شاب أذاقوه الردى، ولم يأسفوا على شبابٍ علقت عليه آمال الوطن! وقد ساءني بل أحزنني جدًّا مقتل الولدين، وأبيهما، فقد استنجد الوالد بالأرض والسماء، ووعد الظالمين القساة، بل البرابرة، بكل ما يملكه ليصفحوا عن ولديه، فلم يُسمع له دعاء؛ بل قتلوا ولديه، وألحقوه بهما ...

لقد أبكاني، وأبكى الأساقفة جميعاً هذا الحزن، ولا ريب أنه بلغ مسامع الرب؛ ولهذا تراني أوبخك، وأؤنبك على جرمك الفظيع؛ لأن اشتراكي معك لا يبرئك من الإثم، بل يثقلني بخطيئتك، ولا يبقى لك ناصح لتتوب إلى الله، ليتوب الله عليك.

أنت إنسان عرضت لك تجربة، فانتصر عليها، فالإثم لا يُمحى إلا بالدموع، والرب لا يغفر إلا لمن تاب، ولا يستطيع ملك أو رئيس ملائكة أن يغفر الخطايا إلا بالتوبة، فأشير عليك، وأتضرع إليك أن تتوب، فلا أجسر أن أقدم الذبيحة إذا رغبت في أن تشهدها، فإن ذلك محظور على من أراق دم بريء واحد، فما ترى فيمن أراق دماء أبرياء كثيرين، فأنا أحبك، وأجلك، وأصلي من أجلك، فإن وثقت من ذلك، فارغِ بالتوبة إلى الله، وإن لم تثق بصدق كلامي، فاعذرني إذا فضلتُ الله عليك.

إمبروسيوس
أسقف ميلان

(يطوي الكتاب، ويضعه في جيبه، ثم يفكر قليلاً، وينهض قائلاً):

ويلي! أرى وجه البسيطة أظلما والأرض غاضبة عليّ مع السما
أطلقت للنفس العنان وليتني لم أترك الأهواء تفعل مثلما ...

يا خجلتي وصحائفي قد سُوِّدت
يا خجلتي في موقف الديان إذ
وأرى الشيوخ على الثرى صرعى وقد
وأرى نساء في الخدور تجندلت
وأرى أطفالاً بهم قد أعملوا
تبّاً لتوادوسيوس ... راعياً
يا ليتني في القبر ميتاً مدرجاً
إنني إليك أبا البرية تائبٌ
إن كنتُ ذا الذنب العظيم فتوبتي
أنا نادمٌ أنا نادمٌ أنا نادمٌ

بجرائمٍ منها الوجود تألماً!
تبدو سلانيكُ كبحرٍ من دما!
ذرفت عليها الأرض دمعاً عندما
ظلماً، فويلي من عذاب جهنما
الرمح المثقف والحسام اللهزما^١
جعل الرعية للأسنة مطعماً
فجرائمي قد أغضبت رب السما
عما فعلت فجُذ بعفوك وآنعم
ستكون يا رب البرية أعظما
ولتوبتي طوفان دمعي قد طما

أه! ما أفضع ذنباً اقترفته، فقد ارتاعت له البشرية وأنت الإنسانية من جور هذا الحكم، وضميري يبكتني على فظائعي.

(تظهر له أشباح.)

ماذا أرى؟ خناجر حمراء! سيوفاً ملطخة بالدم! رجالاً صرعى! ما هذه الأشباح؟
إنها تحاول الانتقام مني، إليك عني أيتها الخيالات! ابعدي ابعدي، إنك ترهبيني، رباه
كيف الخلاص (تختفي الأشباح).
وا خجلتي منك يا إمبروسيوس! لقد نهيتني عن هذا الإثم الفظيع، فانتهيت، ولكن
ذوي المآرب جعلوا لي العدول عن الفتك بالشعب عجزاً وجبناً ففعلت، رباه عفوك!

المشهد الرابع

توادوسيوس - الحاجب

الحاجب: مولاي! إن إمبروسيوس قد قدم، وسألني أن أستأذن له بالدخول عليك،
فماذا تأمر؟

^١ اللهزم: الحاد القاطع من السيوف، والأسنة، والحراپ.

توا (يفتكر هنيةة): عد أيها الحاجب إليه، وقل له إن مولاي راقدٌ في غرفته، ثم ادعه إلى هذه القاعة، ومتى استقر به المقام ادع الوزراء لمقابلته، وأفهمهم أن يتلطفوا معه في الحديث، وإذا سألك بعدئذٍ أن تدعوني، فلا تتأخر.

الحاجب: سمعاً وطاعةً (يخرج).

توا: يا للفضاعة! كيف لا أخجل من مقابلتك يا إمبروسيسوس، لقد نهيتني عن أفضع الآثام فما انتهيت، رباه! ماذا أصنع لأكفر عن أثامي؟

(يقرع جرساً فيدخل جندي).

المشهد الخامس

توادوسيسوس - جندي

توا: انتظر في هذا المكان قدوم السيد إمبروسيسوس، ومتى دخل تخلّ له عن هذا المقام إذا لم تكن له حاجة بك.
جندي: أمرك مولاي.

(توا يخرج).

جندي: ما هذه الكآبة المستولية على جلالته؟ لقد كنت أظن أننا جماعة المأمورين وحدنا عرضة للهموم، أما الآن فقد ظهر لي أن الجميع لدى الهموم سواء، وربما كانت الهموم على قدر الهمم، فأنا الجندي الصغير لا يهمني إلا إملاء جوفي، وتنفيذ أوامر ضباطي فقط: تعالَ تعالَ، رُحْ رُحْ، فما أسهل هذه الحياة! فلو أعطوني هذا العرش مع الهموم والشقاء لرفضته بلا أسف، لنجرب الجلوس عليه (يجلس على الرفاص، ثم ينهض كالمرتعد) إن مقعدي الخشبي لأنعم منه وألّين، والجلوس عليه أشهى وألذ، مجانين هم الملوك؛ يحملون أحمالاً ثقيلة، أما أنا فلا يهمني شيء في العالم، فمن المأمورية إلى الغناء والترنيم، أسمع وقع أقدام! من هذا؟ شيخ جليل! أهذا إمبروسيسوس؟!

المشهد السادس

الجندي - إمبروسيوس

(إمبرو يدخل.)

جندي: صباح الخير يا سيدنا، تفضل اجلس، هل لك بي حاجة؟ مر، فأنا أطوع لك من بناتك.

إمبرو: أشكرك يا ابني، ولا حاجة لي بك.

جندي: إذن اسمح لي بالخروج.

إمبرو: رافقك الله.

المشهد السابع

إمبروسيوس وحده

أبكي ولكن هل يفيد بكائي	من بعد ذا التنكيل من أبنائي؟!
ذهبوا جميعهم ضحية ساسة	قد نفذوا في الخير شرَّ قضاء
يا ليت في عيني بحر مدامع	لأنوح في الأنوار والظلماء
أبكي على شعب يُساق لذبحه	سَوْق النعاج فيا لطول رثائي!
أَلْجَل تمثالٍ تُباد رعية	وتشب فيها نار كلِّ بلاء؟
رباه ما هذي القساوة لم يرد	هذا عن الأجداد والآباء
رؤساء هذا الشعب شُرُكُم طما	يا ويلكم من سيد الرؤساء
أسخطتموه بظلمكم وصنيعكم	وهو الرءوف البر بالأبناء
رباه عفوًا وامنحْ ندامة	من أخطئوا وأقبل حميم نداني

نعم، أسألك يا الله أن تضرم في قلب الإمبراطور نار التوبة، وتمطر عليه سحائب النعمة، فيمحو بدموعه أوزاره وآثامه، لقد قتل بأوامره الأبرياء، فيا دمهم الطاهر! أسأل الله الصفح عن سافكك، فإذا تمرغ الملوك في حمأة الآثام، والمظالم، فيا ويل شعبيهم، ما أمرٌ عذابه!

المشهد الثامن

إمبروسيوس - الحاجب - الوزيران

الحاجب: سيدي، إن الوزراء قد أقبلوا!
إمبرو: آه من الوزراء، فهُم هم قد أهرقوا الدماء.
الوزيران (يدخلان): السلام عليك أيها السيد الجليل.
إمبرو: وعليكم السلام يا ولادة الأمور.
وزير ١: يسرنا أن نرى سيادتك من حين إلى آخر؛ لنستقي من مناهل إرشادك، وينابيع حكمتك.

إمبرو: وما تنفع مياه الإرشاد؟ فأرض القلوب من فولاذ.

وزير ٢: وما تعني سيدي؟
إمبرو: أعني أن كلامي ذهب أدراج الرياح، ولم تؤثر بكم عظاتي، فأنا أرثي لكم، وأشفق على إمبراطور عظيم هو بين أيديكم كريشة في مهب الريح، أما وعدني بالعفو عن الشعب! أما أمر بحقن الدماء، وسلمني إرادته السَّنيَّة! ولكنكم عدتم، فحولتم أفكاره عن مجاريها.

وزير ١: لا يا سيدي، فنحن براءٌ من هذا، ولكن حاكم المدينة اغتاز مما جرى، وقدم استعفاءه مع الهيئة الحاكمة كلها، فاضطر الملك إلى مجاراته، وأصدر أمرًا ثانيًا، وهكذا كان.

إمبرو: آه من تلك الأوامر الجائرة! وويل للقساة الظالمين يوم الدين.

المشهد التاسع

المذكورون - المستشار

المستشار (يدخل): سيدي إمبروسيوس، إن جلالة الإمبراطور أوفدني إليك؛ لأخبرك بقدومه لمقابلتك، وقد تلقى رسالتك، فأثرت به أيما تأثير.

إمبرو: وأنا لهذه الغاية أتيت، جئت لأرى جلالته، وأخاطبه كما خاطب الأنبياء قبلي الملوك قبله.

المشهد العاشر

المذكورون - توادوسيوس

(توا يدخل.)

الوزيران: حياك الله يا جلالة الإمبراطور.

توا: لقد أتيتك أيها السيد الجليل خاضعًا تائبًا إلى الله، وإليك، وألتمس منك الغفران، والسماح لي بحضور الذبيحة المقدسة.

إمبرو: إنني بالجرأة المسيحية التي تدرع بها الرسل قبلي أرد طلبك، وأرفض قبولك بين المؤمنين الأبرار، فإن آثامك هائلة، وجرائمك فظيعة، أيها الإمبراطور، فقد سفكت دماء إخوانك بلا عدل، ولا شفقة، فخضبت وجه الأرض بدمائهم انتقامًا لحاكم ظالم بربري.

توا: لنن أخطأت إلى الله، فكم من ملوك أخطئوا قبلي! ولهذا أتجاسر، وأقول لك إنني أريد أن أكون غدًا بين المؤمنين، وأقترب من مائدة الخلاص.

إمبرو: كيف ترفع إلى الله يدين ما زالتا تقطران دمًا أراقتة جورًا؟ بل كيف تقبل على هاتين اليدين جسد الرب المقدس، وتتناول دمه الكريم؟ أنت يا من بسورة غضبك سفكت دماء الأبرياء، فاعتزل من هنا، ولا تزدد إثمًا على إثمك الفظيع، اخرج، ولا تخالط البشر، فأنت محروم من شركة المؤمنين، فلا تخالطهم لئلا تلصق بهم عار جرائمك.

(توا يخرج كئيبيًا، ويتبعه المستشار والحاجب.)

وزير ٢: ما أقوى سلطة الدين!

وزير ٢: فلها تخضع الملوك (يخرجان).

المشهد الحادي عشر

إمبروسيوس وحده

أأخاف صولة الملوك، وأنا ممثل رب الأرباب! ألم يقل رسول الأمم: وبَّخ، وأنَّب، ولا يُهَنِّكَ أحد؟! بلى؛ هكذا يجب أن أصنع، وإن عاد إلي ثانية بحلته الملوكية وتاجه الذهبي فلأطردنه، ولن أعفو عنه حتى تبدو توبته لكل ناظر.

المشهد الثاني عشر

إمبروسيوس - مكدونيس

مكدو (يدخل): السلام عليك أيها السيد الجليل. (يركع، ويقبل يده).

إمبرو: فليباركك الله أيها الناسك المحترم.

مكدو: لقد عرفت بقدمك السعيد إلى هذا المقام، فأتيت ملتمساً أن أكون خادمك

في الذبيحة التي تقدمها في الغد في مطلع الصوم المبارك، فهل تسمح لي؟

إمبرو: وهل يسوغ لنا أن نحرملك عملاً تقوياً أيها الورع! فبكل شكر أقتبلك، ولا

حرمت الكنيسة من خدمة صادقين.

(نشيد من الخارج):

يا نفس توبي وارجعي بتحسُّرٍ وتوجُّعٍ

* * *

لا تبتغي الآثاما وتجنبي الظلاما
فإِلَامَ أنتِ إِلَاما في غمرة لم تقشع

* * *

سعدًا لمن قد تابا وإلى المهيمن آبا
سيرى المسيء عقابًا يوم الحساب المزمع

* * *

أنا تائبٌ أنا نادمٌ بمساءتي أنا عالم
رباه أنت الراحم فانظر ورقّ لأدمعي

مكدو: لقد أثرت بي هذه التسابيح.
إمبرو: أظن هذا جوق الملك يرنم نشيد التوبة.

المشهد الثالث عشر

المذكوران - الملك - وحاشيته

توا (يدخل ومعه حاشيته، وهو لابس المسح^٢ ثم يقول لإمبروسيوس): لقد أتيتك
أيها الراعي الصالح لابسًا المسح خالعا الحل الملوكية، طارحًا التاج عن رأسي، وقلبي
منسحق نادم، فحلني من آثامي، ولا تحرمني من ثمار موسم الصوم المبارك.
إمبرو: إن التوبة باللسان أيها الإمبراطور لا تُقبل عند الله، فإن لم تمارس العقوبة
الكنسية المفروضة على الخطاة لا أجرؤ على قبولك في هيكل الله.
توا: إن نفسي حزينة حتى الموت، وقد سحقت الندامة قلبي أيها الراعي الصالح، فلا
ترذلني، لا تعاملني بحسب آثامي، فلهذا أنا جاثٍ أمام الله وأمامك، هاتفًا بلسان النبي
داود: «قلبا نقيًا اخلق فيَّ يا الله وروحًا مستقيمًا جدد في أحشائي»^٣ فحلني يا سيدي
من وثاقي، ولا توصل في وجهي بابًا مفتوحًا لكل تائب.
إمبرو: أية توبة صنعت بعد إثمك الفظيع؟ وبأي رداء عالجت جراح نفسك
الثخينة؟

توا: أعلمني بما يقتضي، فأصنعه، فقد أثقلت آثامي عاتقي، وكرهت ثوب المعاصي
القدر الذي ألبستنيه جرائمي.

^٢ المسح: ثوب بسيط من صوف خام، أو من شعر، كان النساك والزهاد يلبسونه قهراً للجسد.

^٣ قول للنبي داود جاء في المزمور الخمسين مستغفرًا الله على ما جنت يده.

إمبرو: علمت أن سرعة احتدامك حملتك على هذه المعصية الكبرى، فعليك أن تروّض ميلك إلى الغضب، وأن تعدني الآن أمام الله، والناسك بأنك لا تنفذ الأحكام بالقتل وضبط الأملاك إلا بعد شهر من صدورها.

توا (إلى المستشار): أعطني قلمًا وورقة.

إمبرو: انهض واكتب.

توا: بل أريد أن أكتبها جاثيًا؛ كفارة عن آثامي.

المستشار: تفضل سيدي.

توا:

نحن توادوسيوس قيصر إمبراطور الرومان، قد عاهدنا الله ألا تُنفذ أحكام القتل وضبط الأملاك إلا بعد شهر، ونأمر أن تُضاف هذه المادة إلى قانون المملكة الأساسي.

توادوسيوس

(إلى إمبروسيوس).

هاك ما أمرت سيدي.

إمبرو: انهض أيها الإمبراطور.

توا: قد لصقت نفسي بالتراب، فأحيني يا رب حسب كلمتك.

إمبرو: سر بنا إلى منبر التوبة، ويغفر لك الله آثامك، فقد علمت بتوبتك الأجيال الآتية، وربك تواب رحيم.

(توا ينهض).

لقد ثُبْتُ عن إثمي ونفسي حزينٌ فيا ربي اقبلها، ويا رُسْله اشهدوا
ولي بالنبي داود خير تشبُّهٍ فللرب طول الدهر نفسي تسجد

(يرخى الستار).

